التناسق الفني في القرآن الكريم عند سيّد قطب
(مفهومه، درجاته، و مظاهره).

زينة بورويسة
طالبة دكتوراه

الملخّص

التناسق الفني أداة وظفها القرآن الكريم لتصوير المشاهد المختلفة، و هو بمفهوم سيد قطب حُسن اختيار وتوظيف الجزئيات انطلاقا من الأصوات و الألفاظ و العبارات، مرورا بالمشاهد و الأساليب الصوتية، وصولا إلى السياق العام. و تختلف نسبة و طريقة استثمار هذه الجزئيات باختلاف الألوان الخمسة للتناسق الفني التي تصب في مجريين، يتعلق الأول بتناسق المعاني و الدلالات الحاصلة من تأليف الكلام، و يتعلق الثاني بتناسق الأصوات و الألفاظ والتراكيب و السياق العام.

و ينتظم التناسق الفني حسب سيد قطب في سبعة مظاهر تتراوح بين تناسق الجزئية الواحدة مع الدلالة، و تناسق الجزئيات مع بعضها ، و تناسق الجزئيات المختلفة مع الدلالة. و يعتمد سيد قطب في عرض هذه المظاهر على ضرب الأمثلة من القرآن الكريم و شرحها مستعينا ببعض المبادئ الفنية : كمبدأ تناسق الألوان في الفن التشكيلي، و تناسق الإخراج في الفن المسرحي، و قد ساعدته هذه المبادئ في تحليل المشاهد التي ترسمها الآيات القرآنية، و إظهار بعض أسرار التصوير الفني في القرآن الكريم و الذي من شأنه أن يثري اللغة العربية، و يميط اللثام عن بعض مظاهر الإعجاز القرآني.

تمهيد:

يعتبر سيد قطب رائدا من الرواد المحدثين في دراسة معاني القرآن الكريم، إذ حاول من خلال مؤلفيه (**في ظلال القرآن**) و (**التصوير الفني في القرآن**) أن يؤسس لمنهج جديد متميّز في الدراسات القرآنية، أُطلق عليه لاحقا "المنهج البياني"[1]. و يعدّ سيد قطب بشهادة الباحثين " رائدا للفكر الإسلامي المعاصر، و مجدّدا في موضوعات أساسية في التفسير"[2] ، و لعل ذلك راجع إلى اعتماده الأسلوب الأدبي في التفسير، حيث نجده في كتابه (**التصوير الفني في القرآن**) يحاول استنطاق النص القرآني في مختلف مستوياته و تسليط الضوء على كل الوسائل المستعملة فيه لتحصيل الدلالة و إيصال المعنى، و هو في ذلك يرى أنّ " التصوير الفني هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن"[3]، و لتحقيق هذا التصوير تتضافر كل الوسائل اللغوية من الصوت إلى التركيب تضافرا معجزا ذا آفاق فنية، جمالية، دلالية، فهو " تصوير باللون، و تصوير بالحركة، و تصوير بالتخييل، كما أنّه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل. و كثيرا ما يشترك الوصف ، والحوار، و جرس الكلمات، و نغم العبارات، و موسيقى السياق في إبراز صورة من الصور، تتملاها العين و الأذن، و الحس و الخيال، و الفكر و الوجدان"[4] ، فينسى القارئ في لحظة أنّه يقرأ القرآن، و يخيّل إليه أنّه يعيش

---

[1] المنهج البياني في التفسير: منهج يركّز على بيان وجه الاعجاز القرآني في اختيار اللفظ دون غيره من المترادفات الأخرى في التعبير عن معنى محدد.

[2] في ظلال القرآن في الميزان، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار الشهاب ، الجزائر، ط1986،1م، ص:5.

[3] التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، مطابع الشروق، القاهرة، ط13، 1993م، ص: 36.

[4] نفسه، ص: 36.

قصة من القصص التاريخية، أو يقف أمام لوحة تعرض الجنّة و نعيمها، و النّار و لهيبها...في مشاهد فنية مكتملة الملامح متناسقة الجزئيات اصطلح سيد قطب على تسميتها ب**التناسق الفني**.

ويجد قارئ فصل (التناسق الفني) من كتاب (التصوير الفني) نفسه أمام جملة من المفاهيم و الأفكار و الأمثلة التي تصب في متن واحد دون ضبطها في عناوين محددة، حتى لتبدو المفاهيم ضبابية و الأفكار متداخلة، وقد يعود هذا لكون منهجه في التفسير جديدا لم تضبط معالمه بعد، إلا أن القراءة المتأنية المتكررة لهذا المتن تبين عن عقل صاحبها المتفرّد الذي أخرج للوجود منهجا متميّزا في التفسير، و نسعى من خلال هذا البحث إلى عرض بعض ما جاء حول التناسق الفني في شكل عناوين و متون منظمة، تتخللها أمثلة و إحصاءات من شأنها تنوير القارئ و إماطة اللثام عن فكرة التناسق الفني التي أراد سيد قطب تقديمها من خلال كتابه التصوير الفني في القرآن.

أولا– مفهوم التناسق الفني و درجاته عند سيد قطب:

لم يقدم سيد قطب مفهوما مباشرا للتناسق الفني، لكننا نستطيع تحسس معالم هذا المصطلح من خلال الأمثلة التطبيقية التي قدّمها. فالمعلوم أن النسق " ما جاء من الكلام على نظام واحد"[1] ، و التناسق التنظيم. و التناسق الفني سمة النسق القرآني، إذ ينطلق حسن النظم المؤتلف مع جمال المعنى من الأصوات المفردة إلى الألفاظ في صيغتها وجرسها، وصولا إلى تناسق المشاهد في إيقاعها و زمن عرضها، فيما يُطلِق عليه "تناسق الإخراج". و عليه يكون التناسق الفني عند سيد قطب يعني: حسن اختيار و توظيف مختلف الجزئيات (الأصوات المفردة، صيغ الألفاظ، تأليف العبارات، الأساليب الموسيقية، الانتقال بين المواضيع، مراعاة الحالات النفسية...) و نظمها في نسق واحد خادم للمعنى و محققا لأغراض دلالية معينة لا تتحقق بإسقاط أو استبدال جزء من هذه الأجزاء.

و الواضح أنّ التناسق الفني عند سيد قطب ينطلق من مفاهيم قديمة عرفها المفسرون و اللغويون، حتى و إن لم يطلق عليها ذات المصطلح، من ذلك ما أشار إليه حازم القرطاجني بقوله: " و إنّما الوضع المؤثر وضع الشيء الموضع اللائق به، و ذلك يكون بالتوافق بين الألفاظ و المعاني و الأغراض من جهة ما يكون بعضها في موضعه من الكلام متعلّقا و مقترنا بما يجانسه و يناسبه و يلائمه من ذلك"[2].

كما نجد الزركشي في البرهان يطيل الحديث في قضايا تصب في ذات المفهوم، منها حديثه عن تناسب رؤوس و خواتيم السور المتتالية في موضوعاتها، و التوافق الحاصل بين الفواصل لفظا و معنى، و محافظة النص القرآني على جمال نسقه و نظمه بتوظيف ظواهر كثيرة: كالتقديم و التأخير، الحذف و الزيادة، التكرار... ، و عن حسن نظم الألفاظ و التئام معانيها يقول صاحب البرهان:" لا يحسن تخيّر الألفاظ المؤنقة في السمع السلسة على اللسان إلاّ مع مجيئها منقادة للمعاني الصحيحة المنتظمة، فأما أن تهمل المعاني و يهتم بتحسين اللفظ وحده غير منظور فيه إلى مؤدّاه على بال فليس من البلاغة في فتيل أو نقير"[3].

---

[1] القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز أبادي، دار الحديث، القاهرة، 2008م، مادة نسق، ص: 1606.

[2] منهاج البلغاء و سراج الأدباء، حازم القرطاجني ، تح محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، 1964م، ص:153.

[3] البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد عبد الله الزركشي، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، دت،ج1، ص:72.

و نجد الزركشي في أكثر من موضع في البرهان يطلق اسم "المناسبة" على تناسق و توافق موضوعات السور المتتالية ناسبا "علم المناسبة" إلى الإمام أبي بكر النيسابوري. و المناسبة عنده تلازم ذهني و معنى رابط فائدته "جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط و يصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء"[1] .

و في العصر الحديث نجد عددا من الباحثين عملوا على ضبط كثير من المفاهيم، و التعمق أكثر في دراسة الخطاب القرآني و بلاغته، و بيان مواضع الإعجاز فيه و التي من أهمّها هذا التناسق الفني الذي يقوم على تخيّر الألفاظ، و"استعمال أمسّها رحما بالمعنى و أفصحها في الدلالة عليه، و أبلغها في التصوير، و أحسنها في النسق، و أبدعها سناء، و أكثرها غناء و أصفاها رونقا"[2].

و يظهر مما سبق أنّ التناسق الفنّي عند سيد قطب ينطلق من مفاهيم قديمة و يتوافق مع دراسات حديثة، لكن بمفهوم جديد أشمل و أكمل، إنّه حديث عن تضافر كل معطيات النص اللغوية من صوت ولفظ و تركيب و صيغ و سمع و معنى في صناعة مشهد متكامل العناصر.

والتناسق الفني عند سيد قطب " ألوان و درجات، و من هذه الألوان ما تنبه إليه بعض الباحثين في بلاغة القرآن، و منها ما لم يمسسه أحد منهم حتى الآن" [3]، و هذه الألوان خمسة هي:

اللون الأوّل: التناسق في تأليف العبارات بتخيّر الألفاظ، ثم نظمها في نسق خاص، يبلغ في الفصاحة أرقى درجاتها.

اللون الثاني: تناسق الإيقاع الصوتي الناشئ من تخيّر الألفاظ و نظمها مع الوظيفة التي يؤديها السياق.

اللون الثالث: تناسق الفواصل(التعقيبات) مع سياق الآيات.

اللون الرابع: التسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات، و تناسق الانتقال من غرض إلى غرض.

اللون الخامس: التناسق النفسي بين الخطوات المتدرّجة في بعض النصوص، و الخطوات النفسية التي تصاحبها.

و الواضح أنّ هذه الألوان قد تطرّق إليها البلاغيون و المفسرون القدماء في كتاباتهم، غير أن سيد قطب يعيب عليهم سوء التعامل معها، فهم يغفلون بعضها- كما يرى- و يكثرون القول في بعضها الآخر حتى تجاوزوا الصحيح منه و بلغوا درجة من التمحّل الذي لا ضرورة له !.

و المشترك بين كل هذه الألوان هدفها الذي ينتهي إلى تناسق المعاني و الأغراض.

و المتمعّن لهذه الألوان يلاحظ أنّها تصبّ في مجريين:

- يشمل الأوّل التناسق المتعلّق بالمعاني و الدلالات الحاصلة من تأليف الكلام، و نعني به تناسق موضوعات فواتح و خواتم السور، وتناسق موضوعات الآيات في السورة الواحدة و حسن التدرّج فيها.
- و يشمل الثاني التناسق المتعلّق بالأصوات و الألفاظ و التراكيب و السياق العام للآيات (السياق بنوعيه: سياق الحال و السياق اللغوي)[4].

---

[1] نفسه، ج1، ص:36.

[2] إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، تح عبد الله المنشاوي، مكتبة الإيمان، المنصورة، ط1، 1998، ص:192.

[3] التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص:87.

[4] ينظر، المناسبة في القرآن، مصطفى شعبان عبد الحميد، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، ط1، 2007، ص: 36، 54.

ثانيا: مظاهر التناسق الفني في القرآن الكريم

ينتظم التناسق الفني في القرآن الكريم، حسب سيد قطب، في سبعة مظاهر:

1- تناسق التعبير مع معالم الصورة الحسية و المعنوية:

وفيه يتناسق التعبير مع الحالة المراد تصويرها، و هي خطوة مشتركة بين التعبير للتعبير، و التعبير للتصوير، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ**﴾[1] ، وفي هذه الآية" ألوان من التناسق الظاهر و المضمر، و من لطف الكناية عن ملابسات دقيقة، و أدقّ ما فيه ذلك التشابه بين صلة الزارع بحرثه و صلة الزوج بزوجه...وبين ذلك النبت الذي يخرجه الحرث، و ذلك النبت الذي تخرجه الزوج، و ما في كليهما من تكثير و عمران و فلاح"[2].

2- التناسق الفني بين جرس الكلمة و دلالتها:

يرى سيد قطب أن في القرآن الكريم ألفاظا تستقل برسم صورة شاخصة بمفردها لا بمجرّد المساعدة على إكمال معالم الصورة. حيث يستطيع اللفظ الواحد أن يرسم الصورة " تارة بجرسه الذي يلقيه في الأذن، و تارة بظلّه الذي يلقيه في الخيال، و تارة بالجرس و الظل جميعا"[3]. و يضرب المثال في هذا بالجرس الذي تصنعه كلمة (يصطرخون) في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (36) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ**﴾[4] . و آية تصوّر عذاب الذين كفروا في نار جهنّم و صراخهم الشديد، فجاءت (يصطرخون) كلمة مصوّرة للمشهد إذ " يخيّل إليك جرسها الغليظ، غلظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة، كما تلقي إليك ظلّ الإهمال لهذا الاصطراخ الذي لا يجد من يهتم به أو يلبّيه، و تلمح من وراء ذلك العذاب الغليظ الذي هم فيه يصطرخون"[5].

و قد نشأت الغلظة في كلمة (يصطرخون) من اجتماع أصوات الطاء و الراء و الخاء و النون التي صفاتها:

الصاد: مستعل، مطبق.

الطاء : مجهور، شديد، مستعل، مطبق.

الراء: مجهور، متوسط بين الشدة و الرخاوة.

الخاء: مستعل.

و الجهر و الشدّة و الاستعلاء و الإطباق صفات يكتسبها الصوت من طريقة نطقه، و هي دالة على القوّة و الغلظة و الشدّة. يقول ابن الجزري في هذا:" و الشدة من علامات قوّة الحرف، فإذا كان مع الشدّة جهر و إطباق و استعلاء فذلك غاية القوّة"[6]. و اجتماع أصوات بهذه الصفات في كلمة "يصطرخون"، التي تعني في مادتها المجردة الصيحة الشديدة عند الفزع، تضفي

---

[1] البقرة/ 223.

[2] التصوير الفني في القرآن، سيد قطب ، ص: 92.

[3] المصدر نفسه، ص: 91.

[4] فاطر /36-37.

[5] التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص: 92.

[6] التمهيد في علم التجويد، ابن الجزري، دار ابن الهيثم، القاهرة، ط1، 2006، ص: 35.

دلالة مفادها أنّ "الصراخ قد بلغ ذروته، و الاضطراب قد تجاوز مداه، و الصوت العالي الفظيع يصطدم بعضه ببعض، ، فلا أذن صاغية، و لا نجدة متوقعة... فالصراخ في شدة إطباقه، و تراصف إيقاعه، من توالي الصاد و الطاء، و تقاطر الراء و الخاء، و الترنم بالواو و النون يمثل رنة هذا الاصطراخ المدوي"[1] ، و ما كان منهم ذلك إلا بعد أن بلغ اليأس منتهاه في قلوبهم.

3- تناسق الصور بالمقابلات:

التقابل من الطرق التي يكثر التعبير القرآني من استخدامها في تنسيق صوره، فيجمع بالألفاظ صورتين متقابلتين في مشهد واحد، من ذلك تصويره لمشاهد يوم القيامة بأحداث مقابلة بين جو النعيم و جو العذاب في سورة الغاشية:

جو العذاب	**﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (3) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾**[2].
جو النعيم	**﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (10) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾**[3].

و يتعدد استعمال القرآن الكريم للمقابلات و يختلف ، بين مقابلته لصورتين حاضرتين، أو إحداهما حاضرة و الثانية ماضية في الزمان، أو إحداهما حاضرة و الثانية مستحضرة مما نوعد به يوم القيامة.

4- الفاصلة و التناسق الصوتي:

يرجع سيد قطب الألفة الصوتية التي يستشعرها الإنسان في القرآن الكريم إلى مجموعة من الظواهر الصوتية التي يعتبر الفاصلة أهمّها، فطول الفواصل و قصرها، و انسجام الأصوات في الفاصلة الواحدة، و الأصوات التي تنتهي بها الفواصل...كلّها معطيات تصنع لكل سورة جوّا صوتيا مختلفا عن الآخر.

و يضرب هنا سيد قطب مجموعة من الأمثلة التي نستغني عن ذكرها جميعا بذكر ما استخلصناه منها:

- لم يتناول سيد قطب في دراسته هذه الفاصلة باعتبارها ظاهرة صوتية منفردة، و إنما قرنها مع الأصوات المستعملة و طول تركيب الآية و قصرها.
- يرى أن أصوات الفواصل تتغيّر تبعا لسياق الآيات و ليس لمجرّد التنويع، مثال ذلك القصص الذي عادة ما تكون فاصلته بالمد الدال على الاسترسال. و ضرب في هذا مثلا بسورة مريم التي تأتي فيها قصتا النبي زكريا و قصة مريم عليهما السلام برويّ واحد: خفيّا، شقيّا، تقيّا، شرقيّا، سويّا، بغيّا، جنيّا... و هي أصوات رخوة لينة تصلح للقص. و مع نهاية القصتين تتغيّر الفواصل مع بداية آيات أخرى و موضوع آخر:

[1] الصوت اللغوي في القرآن، محمد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي، بيروت، لبنان، ص: 166.

[2] الغاشية/ 2-5.

[3] الغاشية/ 8-11.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[1]. فلاحظ كيف "يتغير نظام الفاصلة فتطول ويتغير رويه فيصبح بحرف الميم، وقبلها مد طويل، وكأنما هو في هذه الآيات الأخيرة يصدر حكما بعد نهاية القصة مستمدا منها، ولهجة الحكم تقتضي أسلوبا موسيقيا غير أسلوب الاستعراض وتقتضي إيقاعا قويا رصينا بدل إيقاع القصة الرخيّ المسترسل، وكأنما لهذا السبب كان التغيير"[2].

- تساعد الجمل في إكمال الإيقاع و تكوينه، فتذهب طولا وعرضا في عمق و ارتفاع لتصوّر المشاهد و تروي القصص، و تقصر أمواجها و يسرع نبضها في تصوير مواقف الرعب والعذاب و الخوف. و من أمثلة ذلك الآية التي تصوّر الطوفان الذي نزل عقابا بقوم نوح.

قال تعالى: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَ نَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[3]، و يعلق قطب على الآية: " إنّ التكوين الموسيقي للجملة هنا يزيد على التموّج العمق و السعة، و فيه كذلك هول و شجى، إنها موسيقى الطوفان"[4].

- يحافظ القرآن الكريم على تناسق الفواصل في كثير من المواضع من خلال التقديم و التأخير و الحذف...حفاظا على جوّ الصورة دون الإخلال بمعاني الآية.

5- تناسق المشاهد و الصور(تناسق الإخراج):

تتحد كل جزئيات الصورة الواحدة و تتناسق مع السياق العام للمشهد تحقيقا لوحدة الرسم، وخدمة للجوّ المراد تصويره، و هو ما عبّر عنه سيد قطب بتناسق الجزئيات و تناسق الإخراج الذي لخصه في ثلاث خطوات[(5)]:

أوّلا: وحدة الرسم، فالقواعد الأولية للرسم تحتم وجود وحدة بين أجزاء الصورة دون تنافر جزئياتها.

ثانيا: توزيع أجزاء الصورة بنسب متناسقة.

ثالثا: اختيار لون الرسم و طرق التدرج في الظلال بشكل يتناسق مع الجو العام.

و يضرب في هذا المقام مثالا عن سورة الفلق التي يعلّق على تناسق إخراجها فيقول " ما هي أجزاء الصورة هنا أو محتويات المشهد؟ هي من ناحية (الفلق) و (الغسق) مشهدان من مشاهد الطبيعة. و من ناحية(النفاثات في العقد) و (حاسد إذا حسد) مخلوقان آدميان.و هي من ناحية (الفلق) و (الغسق) مشهدان متقابلان في الزمان. و من ناحية (النفاثات) و (الحاسد)

---

[1] مريم/ 38.34 .

[2] التصوير الفني في القرآن الكريم، سيد قطب، ص: 116.

[3] هود/ 42. 44.

[4] التصوير الفني في القرآن الكريم، سيد قطب، ص: 119.

[5] ينظر، السابق، ص: 114، 115.

جنسان متقابلان في الإنسان.وهذه الأجزاء موزّعة على الرقعة توزيعا متناسقا، متقابلة في اللوحة ذلك التقابل الدقيق، و كلها ذات لون واحد، فهي أشياء غامضة مرهوبة، يلفها الغموض و الظلام، و الجو العام قائم على أساس هذه الوحدة في الأجزاء و الألوان."[1]

6- التناسق بين المشاهد و الإيقاع الموسيقي:

تتميّز الكثير من السور و الآيات المتتالية بجرس صوتي عام يتماشى و سياق الخطاب القرآني في ذلك المقام، و لا يتعلق هذا الجرس بلفظة واحدة و إنما ينشأ عن تضافر معطيات صوتية مختلفة لصنع جوّ صوتي عام. و يضرب سيد قطب المثال على هذه النقطة بسورة العاديات التي يعلق عليها بقوله:" إن الموسيقى هنا لشبيهة بموسيقى النازعات، بل هي أشد و أعنف، و فيها خشونة و دمدمة و فرقعة، و هي تناسب الجو الصاخب المعفّر الذي تنشئه القبور المبعثرة، و الصدور المحصّل ما فيها بقوة، و جو الجحود و شدة الأثرة..."[2].

و أضيف على تعليقه بالقول: إن المعطيات الصوتية التي صنعت هذا الجو تتلخص في نقطتين:

- **الأصوات المتكررة:** فإذا قمنا بإحصاء الأصوات الأكثر تكررا في هذه السورة وجدناها ما يلي:

الصوت	خصائصه	تكراره
الدال	مجهور، شديد، مقلقل	07
الراء	مجهور، متوسط، متكرر	10
الباء	مجهور، شديد	11

وهي أصوات تساعد على إضفاء جو من الرهبة و القوة على السورة بفعل خصائصها: الشدة، الجهر، القلقلة، التكرار، التي تمكنها من ذلك، و قد أشرنا فيما سبق إلى قول ابن الجزري بقوة هذه الأصوات.

- **الصيغ و التراكيب المتكررة:** في السورة تكرار لبعض الصيغ بشكل متعاقب يصنع جوا من الخشوع و النظام و القدرة الإلهية في تنظيم و تسيير شؤون الكون وفق إرادته، و يبين الجدول التالي الصيغ المتكررة:

الصيغ	الألفاظ	التكرار
صيغة جمع التأنيث	العاديات، الموريات، المغيرات	3
فعلن	أثرن، وسطن	2
فعلا	ضبحا، قدحا، صبحا، نقعا، جمعا	5
فعول	القبور، الصدور	2
فعيل	شهيد، شديد، خبير	3

[1] نفسه، ص: 116- 117.

[2] نفسه، ص: 126.

صيغة الفعل الماضي المبني للمجهول	حُصِّل، بُعثِر	2

و إضافة إلى تكرار الصيغ نلحظ تكرار بعض التراكيب مثل: و العاديات ضبحا، فالموريات قدحا. فأثرن به نقعا، فوسطن به جمعا....وكل أنماط التكرار تولّد جرسا ذا قطع صوتية متشابهة منظمة.

7-التناسق بين المشاهد و مدّة عرضها:

بعد أن ينتهي القرآن الكريم من تناسق الأصوات و الألفاظ و المواضيع ينتقل إلى أرقى مراحل التنسيق، و هي تنسيق المشاهد من حيث طولها أو قصرها، فنجد " بعض المشاهد يمرّ سريعا خاطفا، يكاد يخطف البصر لسرعته، و يكاد الخيال نفسه لا يلاحقه. و بعض المشاهد يطول و يطول، حتى ليخيل للمرء في بعض الأحيان أنه لن يزول"[1]، على أنّ الوسائل المستعملة في الإطالة و التقصير تختلف من مشهد إلى آخر، ومن مقصد إلى آخر.

و سنكتفي هنا بعرض مثال من سورة التكاثر، يقول تعالى: **﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾**[2] فالسورة "تصوّر قصر الحياة فما كادت تبدأ بالتكاثر، حتى انتهت بالمقابر، و ذلك أقصر ما تصور به فترة الحياة في اللفظ و الخيال"، بل هي تصور للإنسان تفاهة حياته التي قضاها في اللهو و التفاخر بالأموال و الأولاد، ثمّ خرج منها كأن لم يلبث إلا ساعة أو ضحاها.

خاتمة

[1] التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص: 128.

[2] التكاثر/ 1-2.

سعى سيد قطب من خلال باب (التناسق الفني) إلى أن يؤكد أنّ القرآن الكريم لم يكن معجزا بما جاء فيه من التشريع و علوم الغيب...فحسب، بل كان معجزا أيضا بقدرته على العرض البديع و التنسيق القوي الذي طال كل جزئيات النص القرآني من الصوت المفرد، إلى اللفظ المنتقى، إلى الجوّ الصوتي الناشئ، إلى المشاهد المتقابلة العرض، إلى الوحدة العامة التي لا تخرج منها كل الجزئيات...دون إغفال لانفعالات المتلقي التي تحركها المشاهد بإيقاعها و زمن عرضها.

ولا يحسن إنهاء الكلام قبل الثناء الشديد على هذا الذوق الفني الذي يتمتع به قطب و هذا الحس المرهف في تدبر القرآن الذي لخصه بقوله ((لقد و جدت القرآن)) و كأن القرآن جاء ليوقظ الجمال الذي ينام في كل نفس بشرية فطرها الله على الطهر. و إن كان لكل زمن دارسون يقرؤون القرآن بلغة عصرهم، فقد حاول سيد قطب تقديم قراءة تتماشى مع إنسان هذا العصر، مستعينا بمقاييس فنية و ذائقة جمالية حديثة، تتعلق بالحس الصوتي و التصوير و التخييل و القصة بوجه يألفه المعاصرون. و في الوقت الذي أثنى كتاب و باحثون، أمثال نجيب محفوظ، على أسلوب سيد قطب في تبسيط التناسق الفني في القرآن، فإن هناك من رأى منه تساهلا في ذلك و تماديا في حق قداسة النص القرآني كاستعماله لبعض المصطلحات: الموسيقي، اللحن، الإيقاع، المشاهد التصويرية، الرسم، التدرج في الألوان...

و في ختام هذا البحث الذي يسلّط الضوء على واحد من أهم الدراسات القرآنية في العصر الحديث يجدر بنا الإشارة إلى جملة من النقائص نحسبها تثري المؤلف و تخدم محتواه:

- ✓ تبويب مادة الكتاب و تقسيمها حسب الموضوعات ضبط المفاهيم و تحديد التعريفات حتى تكون أوضح للقارئ و اقرب إلى ذهنه.
- ✓ الاستشهاد بما جاء به العلماء المتقدمون و المحدثون و الإشارة إلى أرائهم حتى تكون للكتاب قيمته العلمية و للكاتب قيمته الفكرية.
- ✓ الحفاظ على قدسية القرآن الكريم من خلال التحفظ في استعمال مصطلحات وضعت للغناء و الشعر، مع الإشارة إلى وجود مصطلحات في التراث العربي تغنينا عنها و عن المعربة منها.
- ✓ الابتعاد عن المغالاة في استعمال المشاعر و العاطفة و وصف الأحاسيس لترجمة معاني القرآن و محاولة الجمع بين العقل و القلب حتى يكون الكتاب نتيج القلب و العقل.

هذا و للكتاب أهمية كبيرة في الدراسات القرآنية المحدثة التي تعمقت في جمال اللغة القرآنية، لا يحسن بنا إلا الانتباه إلى قيمته للانتفاع منه في تكوين منهج يهتم بعمق الجمال اللغوي في القرآن الكريم.

المصادر و المراجع:

1) القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
2) إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، تحقيق عبد الله المنشاوي، مكتبة الإيمان، المنصورة، ط1، 1998.
3) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعرفة، بيروت، دت، ج1.
4) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، مطابع الشروق، القاهرة، ط13، 1993م.
5) التمهيد في علم التجويد، ابن الجزري، دار ابن الهيثم، القاهرة، ط1، 2006 .
6) الصوت اللغوي في القرآن، محمد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي، بيروت، لبنان، دت.
7) في ظلال القرآن في الميزان، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار الشهاب ، الجزائر، ط1،1986.
8) القاموس المحيط، مجد الدين الفيروزأبادي، دار الحديث، القاهرة، 2008م.
9) المناسبة في القرآن، مصطفى شعبان عبد الحميد، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، ط1، 2007.
10) منهاج البلغاء و سراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الكتب الشرقية، 1964م